

## الباب الثالث والخمسون: في ذكر التلطف في السؤال وذكر من سئل فجاد

روى الإمام مالك في الموطأ عن زيد بن أسلم رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أعطوا السائل ولو جاء على فرس». وما سئل عليه السلام شيئاً قط فقال لا. وأتى إعرابي إلى علي رضي الله تعالى عنه فسأله شيئاً. فقال: والله ما أصبح في بيتي شيء فضل عن قوتي. فولى الأعرابي وهو يقول: والله ليسألك الله عن موقفي بين يديك يوم القيامة. فبكى علي رضي الله تعالى عنه بكاء شديداً وأمر برده. وقال يا قنبر: انتني بدرعي الفلانية فدفعها إلى الأعرابي وقال لا تخذن عنها، فطالما كشفت بها الكروب عن وجه رسول الله ﷺ. فقال قنبر: يا أمير المؤمنين كان يجزيه عشرون درهماً. فقال يا قنبر: والله ما يسرنى أن لي زنة الدنيا ذهباً وفضة فتصدقت به، وقبل الله مني ذلك، وأنه يسألني عن موقف هذا، بين يديه. وقال علي رضي الله تعالى عنه: إن لكل شيء ثمرة، وثمره المعروف تعجيل السراح<sup>(١)</sup>. وقال مسلمة لنصيب: سلني فقال: كفك بالعطية أبسط من لساني بالمسألة فقال لحاجبه: ادفع إليه ألف دينار. وسأل رجل الحسن رضي الله تعالى عنه. فقال له: ما وسيلتك؟ قال: وسيلتي أنني أتيتك عام أول فبررتني. فقال: مرحباً بمن توسل إلينا بنا ثم وصله وأكرمه. ويقال: الكريم إذا سئل ارتاح، واللثيم إذا سئل ارتاع. ولما وفد المهدي من الري إلى العراق امتدحه الشعراء فقال أبو دلامة:

إني نذرتُ لئن رأيتُك قادمًا      أرضَ العراقِ وأمّتَ ذو وقْرِ  
لتصليَنَّ على النبيِّ محمدٍ      ولتَمَلَّأَنَّ دراهمًا حجري

فقال المهدي: صلى الله على محمد. فقال أبو دلامة: ما أسرعك للأولى، وأبطأك عن الثانية. فضحك وأمر ببذرة فصبت في حجره.

وسمع الرشيد إعرابية بمكة تقول:

طحتننا كَلَامَ الأَعْوَامِ<sup>(٢)</sup>      وَرَتْنَا طَوَارِقَ الأَيَامِ  
فأتيناكمو نُمُودُ أَكْفَاءَ      لالتقامِ من زادكم والطعامِ  
فاطلبوا الأجرَ والمشوبةَ فينا      أيها الزائرون بيت حرامِ

فبكى الرشيد. وقال لمن معه: سألتكم بالله تعالى إلا ما دفعتم إليها صدقاتكم فألقوا عليها الثياب حتى ارتها كثرة، وملأوا حجرها دراهم ودنانير. وسأل أعرابي بمكة وأحسن في سؤاله فقال: أخ في الله، وجار في بلد الله، وطالب خير من عند الله، فهل من أخ يواسيني في الله. قال الشاعر:

ليسَ في كلِّ هَلْوَ وأوانٍ      تنهياً صنائعُ الإحسانِ

(١) السراح: العطية.

(٢) الأعوام: شدتها ونوازلها.

فإذا أمكنت فبادر إليها  
وقال البصري:

أضححت حوائجنا إليك مناخة  
معقولةً برحابك الوصال  
أطلق فديتُك بالنجاح عقالها<sup>(١)</sup>  
حتى تشور بنا بغير عقال

وعن علي رضي الله تعالى عنه: قال: يا كميل مر أهلك أن يروحوا في كسب المكارم، ويدلجوا في حاجة من هو نائم، فوالذي وسع وسمعه الأصوات ما من أحد أودع قلباً سروراً إلا خلق الله تعالى من ذلك السرور لطفاً، فإذا نابتة نائبة جرى إليها كالماء في انحداره حتى يطردها عنه، كما تطرد غريبة الأبل. وقال لجابر بن عبد الله: يا جابر من كثرت نعم الله تعالى عليه، كثرت حوائج الناس إليه، فإذا قام بما يجب لله فيها فقد عرضها للدوام والبقاء. ومن لم يقم بما يجب لله فيها عرض نعمه لزوالها. وكان لبيد رحمه الله تعالى آلى على نفسه كلما هبت الصبا<sup>(٢)</sup> أن ينحر ويطعم، وربما ذبح العناق إذا ضاق الخناق، فخطب الوليد بن عتبة يوماً فقال: قد علمت ما جعل أبو عقيل على نفسه فأعينوه على مروءته. ثم بعث إليه بخمس من الإبل وبهذه الأبيات:

أرى الجزار يشحدُ مديتيه  
طويلُ الباعِ أبلج جعفري  
وفي ابنِ الجعبري بما نواه  
إذا هبَّت رياحُ بني عقيل  
كريمُ الجدِ كالسيفِ الصقيل  
على العلاتِ بالمالِ القليل

فدعا لبيد بتأ له خماسية وقال: يا بنية إني تركت قول الشعر فأجيبني الأمير عني:

إذا هبت رياحُ بني عقيل  
طويلُ الباعِ أبلج عشمي<sup>(٣)</sup>  
بأمثالِ الهضابِ كأنَّ رعيًا  
أبا وهبِ جزاك الله خيرًا  
فعدُ إن الكريمَ له معادُ  
تداعينا لهيَّها الوليدا  
أعانَ على مروءته لبيدا  
عليها من بني حامِ قعود  
نحزناها وأطعمنا الثريدا  
وظني في ابنِ عتبة أن يعودا

فقال: لقد أحسنت والله يا بنية، لولا أنك سألتِ وقلتِ عُد. فقالت: يا أبت إن الملوك لا يستحيا منهم في المسألة. فقال: والله لأنت في هذا أشعر مني. ووفد رجل من بني ضبة على عبد الملك فأنشده:

الله ما نسدي إذا ما فاتنا  
ولقد ضررتنا في البلاد فلم نجد  
فاصبر لعادتك التي عودتنا  
طلبُ إليك من السذي نتطلب  
أحداً سواك إلى المكارم ينسب  
أو لا فازشذنا إلى من نذهب

فأمر له بألف دينار. فعاد إليه من قابل وقال: يا أمير المؤمنين إن الروي<sup>(٤)</sup> لينازعني، وإن الحياء يمنعني فأمر له

(١) عقالها: أي فك حبلها.

(٢) الصبا: الريح الشرقية.

(٣) عشمي: منسوب إلى عبد شمس (من قريش).

(٤) الروي: ربما القصيد.

بألف دينار وقال: والله لو قلت حتى تنفذ بيوت الأموال لأعطيتك. وقيل: إن رجلاً عرض للمنصور فسأله حاجة فلم يقضها، فعرض له بعد ذلك، فقال له المنصور: أليس قد كلمتني مرة قبل هذه؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين ولكن بعض الأوقات أسعد من بعض، وبعض البقاع أعز من بعض. فقال: صدقت وقضى حاجته وأحسن إليه.

وروي أن أبا دلالة الشاعر كان واقفاً بين يدي السفاح في بعض الأيام فقال: له سلني حاجتك. فقال: كلب صيد. فقال: أعطوه إياه. فقال: ودابة أصيد عليها. فقال: أعطوه دابة. فقال: وغلاماً يقود الكلب ويصيده به. قال: أعطوه غلاماً. قال: وجارية تصلح لنا الصيد وتطعمنا منه. قال: أعطوه جارية. فقال: هؤلاء يا أمير المؤمنين عيال ولا بد لهم من دار يسكنونها، قال: أعطوه داراً تجمعهم. قال: فإن لم يكن لهم ضيعة فمن أين يعيشون. قال: قد أقطعتهم عشر ضياع عامرة، وعشر ضياع غامرة. فقال: ما الغامرة يا أمير المؤمنين؟ قال: ما لا نبات فيها. قال: قد أقطعتك يا أمير المؤمنين مائة ضيعة غامرة من فيافي بني أسد فضحك وقال: اجعلوها كلها عامرة. فانظر إلى حذقه بالمسألة ولطفه فيها، كيف ابتداء بكلب صيد فهل القضية، وجعل يأتي بمسألة بعد مسألة على ترتيب وفكاهة حتى سأل ما سأل، ولو سأل ذلك بديهة لما وصل إليه.

وحكى عن المأمون أنه قال ليحيى بن أكرم يوماً: سر بنا نفرج، فسارا فينما هما في الطريق وإذا بمقصبه<sup>(١)</sup> خرج منها رجل بقصبه للمأمون يتظلم له فنفرت دابته فألقت على الأرض صريعاً فأمر بضرب ذلك الرجل. فقال: يا أمير المؤمنين إن المضطر يرتكب الصعب من الأمور، وهو عالم به ويتجاوز حدّ الأدب وهو كاره لتجاوزه، ولو أحسنت الأيام مطالبتي لأحسنت مطالبتك، ولأنت على ردّ ما لم تفعل أقدر مني على ردّ ما قد فعلت. قال: فبكى المأمون وقال: بالله أعدّ عليّ ما قلت. فأعاده فالتفت المأمون إلى يحيى بن أكرم وقال: أما تنظر إلى مخاطبة هذا الرجل بأصغرني<sup>(٢)</sup> والنيبي<sup>(٣)</sup> يقول: «المرء بأصغريه قلبه ولسانه» والله لا وقفت لك إلا وأنا قائم على قدمي، فوق وأمر له بصلة جزيلة واعتذر إليه، فلما همّ المأمون بالإنصراف قال الرجل: يا أمير المؤمنين بيتان قد حضراتي، ثم أنشد يقول:

ما جادَ بالوفيرِ إلا وهو معتذرٌ      ولا عفاَ قط إلا وهو مقتدرٌ  
وكلما قصدوه زاد نائلُهُ<sup>(٢)</sup>      كالنارِ يؤخذُ منها وهي تستعُرُ

وقيل: إن بعض الحكماء لزم باب كسرى في حاجة دهرأ فلم يصل إليه، فكتب أربعة أسطر في ورقة ودفعها للحاجب فكان في السطر الأوّل: العديم لا يكون معه صبر على المطالبة. وفي السطر الثاني: الضرورة والأمل أقدماني عليك. وفي السطر الثالث: الإنصراف من غير فائدة شماتة الأعداء. وفي السطر الرابع: أمّا نعم، فمثمرة وأمّا لا، فمريحة، فلما قرأها كسرى دفع له في كل سطر ألف دينار.

وحكى أن رجلاً كان جاراً لابن عبيد الله فأصاب الناس قحط<sup>(٣)</sup> بالعراق حتى رحل أكثر الناس عنه فعزم جار ابن عبيد الله على الخروج من البلاد في طلب المعيشة، وكانت له زوجة لا تقدر على السفر، فلما رأت زوجها تهباً للسفر

(١) بمقصبه: موضع كثير القصب.

(٢) نائلُهُ: عطاءه.

(٣) قحط: جفاف.

قالت له: إذا سافرت من ينفق علينا؟ قال: إنَّ لي على ابن عبيد الله ديناراً ومعني به إسهاد عليه شرعي، فخذني الإسهاد وقدميه إليه، فإذا قرأه أنفق عليك مما عنده حتى أحضر، ثم ناولها رقعة كتب فيها هذه الأبيات يقول:

قالت وقد رأيت الأحمالَ محدجة<sup>(١)</sup> واليئسُ قد جمع المشكورَ والشاكي  
مَنْ لي إذا غبت في ذا المحلِّ قلتُ لها الله وإبسنُ عبيدِ الله مـولاًك

فمضت إليه المرأة وحكت له ما قال زوجها، وأخبرته بسفره، وناولته الرقعة فقرأها وقال: صدق زوجك وما زال ينفق عليها ويواصلها بالبرِّ والإحسان إلى أن قدم زوجها، فشكره على فضله وإحسانه.

وحكي أن مطيع بن إبّاس مدح معن بن زائدة بقصيدة حسنة ثم أنشدها بين يديه، فلما فرغ من إنشاده أراد معن أن يباسطه فقال: يا مطيع، إن شئت أعطيتك، وإن شئت مدحتك كما مدحتنا. فاستحيا مطيع من اختيار الثواب، وكره اختيار المدح وهو محتاج، فلما خرج من عند معن أرسل إليه بهذين البيتين:

ثناءً من أميرٍ خيرُ كسبٍ لصاحبِ نعمَةٍ وأخي ثراءٍ  
ولكنّ الزمانَ برى عظامي<sup>(٢)</sup> وما لي كالدرهم من دواءٍ

فلما قرأها معن ضحك وقال: ما مثل الدرهم من دواء، وأمر له بصلة جزيلة، ومال كثير. قال الشاعر:  
هزرتك لا أني جعلتُك ناسياً ولكن رأيتُ السيفَ من بعد سلّه  
لأمري ولا أني أردتُ التفاضيا إلى الهزّ محتاجاً وإن كان ماضياً

وقال آخر:

ماذا أقولُ إذا رجعتُ وقيلَ لي ماذا لقيتَ من الجوادِ الأفضل  
إن قلتُ أعطاني كذبتُ، وإن أقلّ بخلَ الجوادِ بماله لم يجمل<sup>(٣)</sup>  
فاختَرْتُ لنفسيك ما أقولُ فإنني لا بدّ أخبرهم وإن لم أسأل

وقال آخر:

لنوائبِ الدنيا خبأتك فانتيةً يا نائماً من جملةِ النوامِ  
أعلى الصراطِ تزيلُ لوعةَ كربتي أم في المعادِ تجودُ بالإنعامِ

ومما يستحسن إلحاقه بهذا الباب ذكر شيء مما جاء في ذمّ السؤال والنهي عنه. روي عن عبد الرحمن بن عوف بن مالك الأشجعي رضي الله تعالى عنه قال: كنا عند رسول الله ﷺ تسعة أو ثمانية أو سبعة، فقال: ألا تبايعون رسول الله ﷺ فبسطنا أيدينا، وكنا حديثي عهد بالمبايعه، فقلنا: قد بايعناك يا رسول الله، فعلام يا رسول الله نبايعك؟ قال: «أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وتقيموا الصلوات الخمس، وتطيعوا الله، وأسر كلمة خفية وهي ولا تسألوا الناس شيئاً، فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوط أحدهم، فما يسأل أحداً يناوله إياه» رواه مسلم. وقال رجل لابنه: إياك أن تريق ماء وجهك عند من لا ماء في وجهه. وكان لقمان يقول لولده: يا بني إياك والسؤال فإنه يذهب ماء

(١) محدجة: معدة للسير.

(٢) عظامي: أتلفها.

(٣) لم يجمل: لم يحسن به.

الحياء من الوجه، وأعظم من هذا استخفاف الناس بك. وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام: لئن تدخل يدك في فم التين إلى المرفق خير لك من أن تبسطها إلى غني قد نشأ في الفقر. وقيل لأعرابي: ما السقم الذي لا يبرأ، أو الجرح الذي لا يندمل؟ قال: حاجة الكريم إلى اللثيم. وقال أبو محلم السعدي:

إذا ما رماك الدهرُ في الضيقِ فانتجع<sup>(١)</sup> قديمَ الغنى في الناس إنك حامدُه  
ولا تطلبنَّ الخيرَ ممَّن أفادُه حديثاً ومَن لا يورث المجدَ والدُه

وقال رسول الله ﷺ: «مسألة الناس من الفواحش ما أحلَّ من الفواحش غيرها». وقال عليه الصلاة والسلام: «لئن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره خير له من أن يأتي رجلاً فيسأله أعطاه أو منعه» قال الشاعر:

ما اعتاضَ باذلٌ وجهه بسؤاله عوضاً ولو نالَ الغنى بسؤالٍ  
وإذا السؤالُ مع النوالِ وزنته رجحَ السؤالُ وخفَّ كلُّ نوالٍ<sup>(٢)</sup>

وقال أحمد الأنباري:

لَمَوْتُ الْفَتَى خَيْرٌ مِنَ النَّخْلِ لِلْغَنِيِّ وَلَلْبُخْلِ خَيْرٌ مِنْ سَوْالٍ بِخَيْلٍ  
لَعَمْرُكَ مَا شَيْءٌ لَوْجَهَكَ قِيمَةٌ فَلَا تَلَقْ إِنْسَاناً بِوَجْهِ ذَلِيلٍ

وقال سلم الخاسر:

إذا أذنَّ الله في حاجةٍ أتاك النجاحُ على رسله  
فلا تسألِ الناسَ من فضلهم ولكن سألِ الله من فضله

ويقال: أحب الناس إلى الله من سأله، وأبغض الناس إلى الناس من احتاج إليهم وسألهم، وفي هذا المعنى

قيل:

لا تسألنَّ بنيَّ آدمَ حاجةً وسألِ الذي أبوابُه لا تحجبُ<sup>(٣)</sup>  
الله يغضبُ إن تركتَ سؤاله وبني آدم حين يُسأل يغضبُ

وقال محمود الوراق:

شادَ الملوكُ قصورهم وتحصَّنوا من كلِّ طالبِ حاجةٍ أو راغبٍ  
فارغَبَ إلى ملكِ الملوكِ ولا تُكُنْ يا ذا الضراعة<sup>(٤)</sup> طالباً من طالبٍ

وقال ابن دقيق العيد:

وقائله مات الكرامُ فمَن لنا إذا عَضْنَا الدهرُ الشديداً بناه  
فقلتُ لها مَنْ كان غايةً قصده سؤلاً لمخلوقٍ فليس بناه

(١) انتجع: اقصد.

(٢) نوال: عطاء.

(٣) تحجب: ليس بها من يمنع.

(٤) الضراعة: أي الذي يضرع إلى مولاه ويدعوه.

إذا مات من يُرجى فمقصودنا الذي  
وقال بعض أهل الفضل:

ترجيتُه باقٍ فلوذي ببابه  
لما افتقرتُ لصحبي ما وجدتهمو  
وهاً على بذلٍ وجهي للورى سفهاً  
فلو بذلتُ إلى مولاي والاني<sup>(١)</sup>

وسأل رجل رجلاً حاجة فلم يقضها فقال: سألت فلاناً حاجة أقل من قيمته فردني رداً أقيح من خلقتة. وسأل عروة مصعباً حاجة فلم يقضها فقال: علم الله تعالى أن لكل قوم شيخاً يفزعون إليه، وأنا أفزع<sup>(٢)</sup> منك. ويقال لا شيء أوجع للاختيار من الوقوف بباب الأشرار. وقال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى:

بلوتُ بني الدنيا فلم أرَ فيهم  
فجردتُ من غمدي القناعة صارماً  
فلا ذا يراني واقفاً في طريقه  
غني بلا مالٍ عن الناس كلهم  
إذا ظالمٌ يستحسنُ الظلمَ مذهباً  
فكلُّهُ إلى صَرفِ الليالي فإنها  
فكم قد رأينا ظالماً متمرداً  
فعمّا قليلٍ وهو في غفلاته  
فأصبحَ لا مالَ ولا جاهَ يرتجى  
وجوزيَ بالأمرِ الذي كان فاعلاً

وقال آخر:

لا تسألنَّ إلى صديقٍ حاجةً  
واستعني بالشيء القليل فأنه  
من عَفَّ خَفَّ على الصديق لقاءه  
وأخوك مَنْ وفرت ما في كفه

وقال آخر:

ليس جواداً أعطيتُه بسؤالٍ  
إنما الجوادُ ما أتاك ابتداءً

وقال آخر:

قد يهزُّ السؤالُ غيرَ جوادٍ  
لِمَ تَدُقُّ فيه ذلّةُ التردادِ

(١) والاني: نصره.

(٢) أفزع: أخاف.

(٣) إهابه: أي قد صار البخل من أصل خلقتة.

(٤) العتو: التكبر.

وقال آخر:

لا تحسبن الموت موتَ البلا  
كلاهُمَا موتٌ ولكنَّ ذا

وقال الشافعي رضي الله تعالى عنه:

قنعتُ بالقوتِ من زمانِي  
خوفاً من الناس أن يقولوا  
من كنتُ عن مالِهِ غنياً  
ومن رأني بعينِ نقصٍ  
ومن رأني بعينِ تمٍّ<sup>(٢)</sup>  
وَصُنْتُ نَفْسِي عَنِ الْهَوَانِ<sup>(١)</sup>  
فَقَضَّيَ فُلَانٌ عَلَيَّ فُلَانِ  
فَلَا أَبَالِي إِذَا جَفَانِي  
رَأَيْتُهُ بِأَلْتِي رَأْنِي  
رَأَيْتُهُ كَامِلَ الْمَعَانِي

والله سبحانه وتعالى أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

(١) الهوان: الذل.

(٢) بعين تم: عين كاملة.